القُدس.. وَهم الفِكرة وظُلم القوة

□ رشيد الخيون

يغلب على الظَّن أن الرَّئيس الأميركي ترامب تباحث مع إدارته عن إطلاق تصريحه (الأربعاء ٢٠١٧/١٢/٦)، في اعتبار القدس عاصمةً لإسرائيل، هل يكون مناسباً في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني إحياءً للذكرى المئوية لوعد بلفور؟! فيبدو أنهم وجدوه اتفاقاً مضرجاً بالدِّماء، لذا أجل شهراً وأياماً.

كادت تُطمر الفكرة الدِّينية القاضية بحق اليهود بفلسطين؛ يوم اقتُرحت أوغندا وطناً، قبل وعد بلفور، كذلك يُذكر مقترح آخر، اقترحه الكاتب الإنكليزي إسرائيل زانجويل (ت ١٩٢٦)، وكان عضواً في المنظمة الصَّهيونية، أن يكون جنوب العراق مشروعاً «يقضي بإسكان اليهود المنتمين إلى الأقطار الأوروبية المختلفة في تلك المنطقة العثمانية. ولد هذا المشروع بالارتباط مع بناء سكة حديد بغداد، ومشروع إحياء قنوات الرَّي القديمة في العراق الجنوبي»(آدامـوف، ولاية البصرة). كان آدموف قنصلاً روسياً بالبصرة، في نهاية القرن ١٩، ونشر كتابه هذا في(١٩١٢).

لستُ بصدد مناقشة الفكرة الدِّينية بفكرةٍ مضادة، فسيكون الأمر تقول ويقولون، وكلٌ يأتي بدليله الإلهي، والأفكار حمالة أوجه، هذا ما أدلى به الشَّيخ علي عبدالرَّازق (ت١٩٦٦)، في تعليقه على كتاب نظيرة زين الدين(ت ١٩٧٦) «السُّفور والحجاب»، قال: «أما في مجال العمل فقد يكون الجدل، ولا سيما الدِّيني من أشد ما يعوّق العاملين» (الهلال ١٩٢٨/٨/١). فالاختلاف بتسمية الحائط في أن يكون «المبكى» أو البراق "سيصرف كاغد الدّنيا، وماء البحر مداداً، ولم يحصل اتفاق". كذلك لا نميل إلى ما صدر من كُتب عن جغرافيا «التَّوراة»، باليمن أو الجزيرة العَربية، فالطرف الآخر سيرد بما عنده، ويبقى الجدل مفتوحاً، والنَّاس تعيش المأساة في دمائها ومعتقداتها، ذلك ما كتبه صليبي (ت ٢٠١١) في «التَّوراة جاءت من جزيرة العرب»(١٩٨٥)، وفرج الله ديب في «التَّوراة العربية وأورشليم اليمنية» (١٩٩٤) وآخرون. فهذا وغيره لا يعني أصحاب العقائد.

لكن ما نريد تأكيده، ماذا يبقى من الفكرة الدِّينية إذا خُضعت للبحث العقلي؟! هل ستنجو العقيدة بالمسيح المُخلص من اعتراض العقل، أو عقيدة المهدي المنتظَر ودولته، وادعاء المهدين لها، ولا أخفي شكي في أن الراكبين ظهر العقيدة، يرون في قيام «إسرائيل» والقُدس عاصمتها بمثابة التَّمهيد لدولة المسيح المخلص؟! وهل تنجو عقيدة بناء الهيكل إذا خُضعت للفحص العقلي؟! مثلما إذا اخضعنا عقيدة قيامة السَّيد المسيح لمنطق العلم، وأفرغناها من ألقها الدِّيني، كيف يكون أمرها؟!

نقول هذا لا تشكيكاً بعقائد النَّاس، على العكس نحترمها ونجلها، لكن صوناً من استغلالها، لتُبعد عن السِّياسة، وتبقى بحدود العقيدة، وإلا يكون اعتراضنا على السلفيات الجهادية، في ما تسعى إليه لإقامة الخلافة الدِّينية باطلاً، إذا كان الرئيس الأميركي يجمع بين الفكرة الدِّينية وظلم القوة. جاء أفضل ردٍّ على «الصَّهيونية» من يهود: جرت مقابلة مع ساسون حسقيل النَّائب في مجلس المبعوثان في إستانبول، نشرت في مارس / آذار ١٩٠٩ في جريدة العالم العبرية، وقد سُئل نائب يهود بغداد عن الصُّهيونية، فقال:«إن اللغة العبرية لغة دينية محضة، ولا فائدة من اتخاذها لغة الكلام اليومية، واقترح –إذا أمكن– تأسيس مركز روحاني يهودي في فلسطين» (بصري، ملحق نزهة المشتاق).

أما الرَّد على بلفور فجاء صاعقاً أيضاً على لسان وجهاء يهود عندما استفسر منهم الحاكم البريطاني على العراق: فـ«رأهم واجمين، وقالوا له: إن فلسطين مركز روحي لنا، ونحن نساعد المعابد ورجال الدِّين فيها مالياً، لكن وطننا هذه البلاد(العراق)، التي عشنا في ربوعها آلاف السِّنين. وعملنا بها. وتمتعنا بخيراتها. فإذا رأيتم أن تساعدوا هذه البلاد، وتحيوا اقتصادياتها، وتسندوا تجارتها وماليتها، فإننا نشارك في الرَّخاء العام» (المصدر نفسه).

ليس كما يتصور الرَّئيس ترامب، وما تفوّه به رئيس وزراء إسرائيل، بأن هذا القرار سيحقق السَّلام! إنها فكرة شوهاء، مثل سياسيي كلِّ دين يعتبرون حروبهم حواراً وسلاماً. على العكس إنها فتحٌ لأبواب جهنم، و«الفاتحون لا يجدون اليوم قفلاً». جاء القرار إنعاشاً للقوى الدِّينية بالمنطقة، وأن اليهود الذين أعرضوا عن بلفور من قبل، وترامب من بعد، يدركون حجم الضَّرر في تهويد القُدس، عليهم أولاً قبل غيرهم. فما هو واضح أن وهم الفكرة يتحول حقيقة، ولكن متى؟! تحت ظلم القوة.

لمحمد مهدي الجواهري «عشرون بلفور»(١٩٨٦): «وصَابرين على البَلْوى يُراوِدهم/ في أن تضمَّهُم أوطَانُهم حُلمُ/ تذكروا عهدَ بالفور فقُلتُ لهمْ/ ما تسجدّونَه عهدي به القدمُ/ مِن قَبل ستينٍ من خزيان مولده/ أقُمتُ مأتَمَ أرضٍ قدسُها حَرمُ »(الدِّيوان). مئة عام بين بلفور وترامب، والفكرة تنمو وتتضخم، والسلفية الإسرائيلية لم تنس، مهما بلغ شأوها العلمي والحضاري أنها «جهاد مع الله»، هذا هو أبرز معاني «إسرائيل»(قاموس الكتاب المقدس). أقول: هل تقول سلفية داعش غير هذا؟!

■ عن: *"الاتحاد" الإماراتية*

أحمد لطفي السيّد وقضيّة التنوير

□ سعيد عدنان

كانت الأمّة، وطليعتها مصر، قد شرعت، منذ أوائل القرن التاسع عشر، تنفض عنها غبار قرون من الجفاف، وتيبّس عروق الحياة، وتسعى الى أن تصل ما انقطع من تاريخها؛ تحيي جوانب القوّة من تراثها، وتمدّ بصرها إلى الغرب تقبس منه ما يفيدها. ولقد كان رفاعة رافع الطهطاوي الرائدَ الكريم الذي أحسن الموازنة بين تراث الأمّة، وحضارة الغرب الحديثة. ثمّ اتّصل النهج من بعده؛ ينشط مرّة، ويخمد أخرى؛ وغايته التي يرجوها، في كلّ أحواله، الحريّة والعقل. وهما معنيان واسعان لا تستقيم نهضة من دونهما، ولا يُستأنف تاريخ إلّا مبنيّاً عليهما. غير أنّ حوادث السياسة، وتقلّباتها؛ كانت ممّا يثبّط هذا النهج، ويجعل مداه ضيّقاً.

ثمّ كان له من جمال الدين الأفغانيّ، حين هبط مصر، ما جدّده، وقوّى عزم الآخذين به؛ فقد كان الأفغانيّ ذا قدرة على إثارة العقول، وحفز الهمم؛ فأحاطت به فئة ممّن يسعون نحو نهضة الأمّة ، واستئناف سيادتها على نفسها؛ كان منهم، بل في طليعتهم، محمّد عبده الإمام المجدّد؛ إذ صحب الأفغانيّ مدّة بقائه في مصر (١٨٧١ – ١٨٧٩)، ثمّ بقي ما بينهما قائماً حين أضطرّ الأفغانيّ إلى مغادرة مصر.

ولعلّ آخر من لقي الأفغانيّ من رجال مصر، وأخذ عنه؛ هو أحمد لطفي السيّد (١٨٧٢ – ١٩٦٣)؛ لكنّه لم يُتح له أن يلقاه في مصر، إذ كان في سني حياته الأولى حين أقام فيها الأفغاني ؛ بل لقيه في الأستانة في سنة ١٨٩٣ بعد أن اتّخذها الأفغاني دار إقامة له في أخريات حياته؛ فصحبه، وأفاد منه .

كان من رسالة الأفغانيّ التي ملأت عليه نفسه، وجعل يسعى من أجل تحقيقها ؛ أن ينهض هذا الشرق المسلم، وأن يملك زمام أمره، وأن تُردّ عليه سيادته، وأن تشيع المعرفة الصحيحة بين أبنائه؛ وقد سرى كلّ ذلك إلى تلميذه الجديد؛ أحمد لطفي السيّد، فوافق عنده أرضاً خصبة؛ تتلقّى الحَبّ وتعيده أضعافاً مضاعفة. ويذكر ما أفاده به فيقول: (وأهمُّ ما أظنّ أنّي انتفعت به من السيّد جمال الدين في تلك المدّة أنّه وسّع في نفسي آفاق التفكير، وهداني إلى أنّ المرء لا يستطيع أن يربّي نفسه إلّا إذا حاسبها آخر كلّ يوم على ما قدّمت من عمل، وما لفظت من قول، وما خطر لها من خاطر).

كان أحمد لطفي السيّد قد صحب الأفغانيّ بضعة أشهر في الأستانة، ثمّ عاد إلى مصر مزوّداً بخير زاد ؛ فجعل من رسالته في الحياة ؛ أن يكون لمصر كيان مستقلّ غير تابع لأيّ من الدول ، وأن يسود فيها العقل !

وهي رسالة ذات ركنين منسجمين عنوانهما؛ الحريّة والعقل! حريّة الأمّة في سيادتها على نفسها ، واحتكامها إلى العقل في ما تأخذ وما تدع؛ ثمّ سيكون للحريّة عنده معنى يجمع بين سيادة الأمّة على نفسها ، وحريّة الإنسان الفرد في فكره ومعتقده .

ولد أحمد لطفي السيّد في سنة ١٨٧٢ بقرية من قرى مصر، في أسرة ذات سعة، ومكانة اجتماعيّة؛ كان أبوه عمدةَ القرية، وجيهاً عند الناس، وعند ذوي السلطان؛ ولكنّه، مع ذلك، ليّن الجانب سمح النفس؛ يتحدّث عنه ابنه فيقول: (وأذكر أنّه ما قسا يوماً عليّ، ولا وجّه إليّ كلمة نابية، أو عبارة تؤلم نفسي؛ بل كان – طيّب الله ثراه – عطوفاً حكيماً في تربية أبنائه، يعتني بالقدوة الحسنة، وحسن التوجيه والإرشاد). ولقد كان لهذه التنشئة الحسنة أثر حميد في تكوين أحمد لطفي ؛ إذ نشأ على شعور بالكرامة التي ينبغي ألّا تُنتقص، ونشأ على حسن التأتّي بعيداً عن ضروب القسر، يرى القدوة الحسنة خير سبيل للإصلاح .

أخذ نفسه بإحسان التعلّم؛ فتزوّد من العربيّة وما يتّصل بها، وأجاد الفرنسيّة وشرع يقرأ بها آثار الفكر والأدب، وأخذ يكتب في الصحافة مقالات تمسّ الشأن العام، وتدعو إلى اليقظة، وترسم سبيل الإصلاح .

كانت مصر، يومئذ، منقوصة السيادة ؛ تبسط عليها الدولة العثمانيّة نفوذها، ويجعلها الإنكليز بمرصد منهم حتّى إذا سنحت فرصة انقضّوا عليها. وإذا كان من أبناء البلد من لا ينكر على العثمانيين بسط نفوذهم، فإنّه ليس منهم من يرتضي الإنكليز؛ غير أنّ أحمد لطفي السيّد كان لا يقبل أولئك، ولا هؤلاء ؛ فكلّهم عنده أغراب؛ وإنّما مصر للمصريين، وحقّ مصر أن تستقل بنفسها، وألّا تكون تابعة من توابع دولة ما.

نادى أحمد لطفي السيّد؛ أنّ مصر للمصريين ! وأعاد النداء، وجعله نصب عينيه؛ ومراده منه؛ أن يفصل مصر عن الدولة العثمانيّة، وأن يقطع سلطان الإنكليز عنها، وأن يكون الحكم في أبنائها. وقد جعل يكتب في الصحافة من أجل بيان ذلك، والتمكين له. وعنده أنّ نظام الحكم لا يصلح إلّا على نهج ديمقراطيّ ينتخب فيه الشعب من يحكمه، ويكون له حقّ المراقبة والتصحيح.

ثمّ تهيّأت له الأسباب، مع آخرين ممّن على نهجه، أن يصدر صحيفة تنطق بما يسعى إليه في الفكر والسياسة؛ فأصدروا " الجريدة " في آذار ١٩٠٧، وبقيت تصدر ثماني سنين، حتّى تشرين الثاني ١٩١٥ . وقد أتيح لـ " الجريدة" أن تكون مدرسة في الصحافة وفي الفكر؛ نشأ على صفحاتها جيل كريم كمثل محمّد حسين هيكل، وطه حسين، ومصطفى عبد الرازق، وعلي عبد الرازق، وإسماعيل مظهر، وغيرهم. وكان قد استقرّ على قلم أحمد لطفي السيّد هيكلُ المقالة؛ في وضوح فكرتها، وتماسك فقَرها، وسلاسة ألفاظها؛ فاستقام له، ولأبناء ذلك الجيل شكل مرن في البيان قادر على استيعاب أفكارهم، وقادر على حسن إبلاغها؛ فكانت "المقالة" أداتهم في نشر فكرهم، وإشاعته .

على أنّه كان يعدّ التعليم سبيل النهضة الأول؛ إذ كلّ سبيل آخر إنّما يقوم عليه، ويمتّ إليه بأقوى سبب؛ وشرط التعليم أن يكون رصيناً متماسكاً مهتدياً بالعقل، وأن يكون حرّاً لا رقيب عليه إلّا من نفسه. وإذا بلغت العقل والحريّة؛ فقد وضعت يدك على جناحي الفكر عند أحمد لطفي السيّد ؛ اللذين هما طريق الاستنارة !

كان الجهل والاستبداد قد اصطلحا على الفتك بالناس؛ إذ كان كلّ منهما يُمكّن الآخر، ويمدّ من سلطانه؛ وقد رأى أحمد لطفي السيّد أنّ القضاء لا يكون إلّا عليهما معاً؛ فجعل نهجه أن يكون عاملاً على مزيد من التعليم الرصين، وعلى إعلاء شأن العقل والاحتكام إليه. وقد سلك إلى ذلك جملة سبل. فقد ساهم في إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨، وكان في موقع الصدارة من إدارتها، وإرساء بنيانها على أسس متينة؛ إذ استقدمت الجامعة الناشئة طائفة من صفوة علماء أوربا، فضلاً عن نخبة من أدباء مصر؛ فضمّت النهجين: العربيّ والأوربيّ في صناعة المعرفة ، ومعالجة قضاياها. ثمّ كان له أثر حميد في إنشاء مجمع اللغة العربيّة في سنة ١٩٣٢، ثمّ ولي رئاسته من سنة ١٩٤٥ إلى وفاته في سنة ١٩٦٣. وقد أشاع في هاتين المؤسستين؛ الفكر الواضح الرصين الذي يجري على مقتضى العقل.

ومن أجل أن يكون للفكر العقلي مهاد يقوم عليه، وإطار يحكمه؛ فقد شرع أحمد لطفي السيّد بترجمة طائفة من آثار أرسطو ؛ فنقل إلى العربيّة من الفرنسيّة كتاب "السياسة" وكتاب "الأخلاق" وكتاب "الكون والفساد". ولا ريب في أنّ آثار أرسطو تغذّي العقل، وتقيمه على أساس متين .

لقد أشاع أحمد لطفي السيّد، بما كتب وبما ترجم وبما عمل، معرفة صحيحة رصينة هادئة؛ كان يريد بها أن يردّ على مصر حريّتها، وأن يخرجها من ظلام الجهل إلى نور العقل .

ولم تكن آثاره مقصورة على ما كتب أو ترجم أو عمل؛ بل إنّ من أجلّ آثاره أن تخرّج به جيل كريم رائد وضع العقل والحريّة نصب أعينه؛ وحسبك أن يكون من هذا الجيل: طه حسين، ومحمد حسين هيكل، وأحمد حسن الزيّات، وعبّاس محمود العقّاد، وغيرهم ممّن في طبقتهم، أو دونها قليلاً .

وقد قُدّر لهذا الفكر المستنير أن يبلغ أقطاراً عربيّة أخرى محمولاً بين طيّات أدب هؤلاء الأدباء ؛ فكانت آثار طه حسين، والزيّات، والعقّاد تُقرأ في مشرق البلاد العربيّة وفي مغربها؛ فتبعث قيم العقل والحريّة، وتضيء دروب الناشئة.

غير أنّ هذا النهج لم يُتح له أن يبلغ مداه، ويحقّق مبتغاه؛ إذ نشأت أنظمة حكم مستبدّة، منذ منتصف القرن العشرين، فاقت الاستبداد القديم؛ ضربت سوراً على العقل، وقصّت جناح الحريّة ! فتضاءل شأن التنوير، وتقلّص ظله.

لكنّ نهج أحمد لطفي السيّد في إشاعة المعرفة الرصينة الصحيحة الهادئة يبقى مرشداً على طريق العقل والحريّة من أجل الخروج من ظلمات الجهل والاستبداد...!

كان الجهل والاستبداد قد اصطلحا على الفتك بالناس؛ إذ كان كلّ منهما يُمكّن الآخر، ويمدّ من سلطانه؛ وقد رأى أحمد لطفي السيّد أنّ القضاء لا يكون إلّا عليهما معاً؛ فجعل نهجه أن يكون عاملاً على مزيد من التعليم الرصين، وعلى إعلاء شأن العقل والاحتكام إليه. وقد سلك إلى ذلك جملة سبل.

المقارنة المحزنة

□ حسين الصدر

-١-

قبل أكثر من ثلاثين عاماً وتحديداً في عام ١٩٨٧، أهداني صديقي الراحل الأستاذ عبد الكريم الأزري مذكّراته الموسومة بـ (تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨) وقد رأيته يشدّد على أهمية تدوين ونشر المذكرات بالنسبة الى من تولوا أعمالاً تتصل بالشؤون العامة (للإفادة العامة من تجاربهم وخبراتهم (

و (لتكون روافد عامة صادقة لتاريخ الحقبة التي عملوا فيها)

و(ليسدّوا الطريق أمام الذين يدوّنون أحداث الماضي بوحي من أهوائهم)

و(ليدحضوا أباطيل سرت على انها حقائق)

أو (ليدفعوا عن تاريخ أمّتهم أو جيلهم ما ألصق به مما ليس فيه)

أو (ليبيّنوا مواطن الأغلاط في التصرف والسلوك أو الاجتهاد وما نجم عنها من نتائج أو ورثته من سيئات مما ينبّه الأجيال الحاضرة والآتية الى اجتنابها).

راجع الكتاب المذكور (ص ٧)

-٢-

ثم أنه يذكر المناصب التي تولّاها ابتداءً من سنة ١٩٣٠ فيقول :

ابتدأ العمل (معاون قنصل) في كرمنشاه ، ثم عمل (ملحقاً في السفارة العراقية بطهران، ثم مدرساً في دار المعلمين الابتدائية، ثم أصبح سكرتير وزارة المعارف. ثم تولى مهام معاون رئيس الديوان الملكي، وبعدها أصبح رئيساً للديوان الملكي بالوكالة، ثم رئيساً للتشريفات الملكية، ثم أصبح مديراً عامّاً للواردات (اي مدير الضرائب العام في وزارة المالية)، ثم تولى مهام مدير التجارة في وزارة المالية .ثم أصبح مديراً عاماً لوزارة الاقتصاد، ثم أصبح نائباً في المجلس النيابي، ثم مقرراً للجنة المالية، ثم انتهى به المطاف الى أنْ تقلد منصب وزير المالية – لمرات عديدة –.

كما انه أشغل منصب وزير الإعمار أيضاً .

وكانت آخر وزارة تولّاها هي وزارة المالية في حكومته الاتحاد العربي التي انتهت بانتصار ثورة تموز عام ١٩٥٨ .

ومن هذا الاستعراض التفصيلي للمناصب التي تقلّدها يبرز بوضوح عنصر التدرج وتنوع المهام الموكلة إليه في مؤسسات الدولة.

ولا شك أنَّ العمل في مختلف المواقع والمهام، يؤدي الى امتلاك الرصيد الكبير من الخبرة والدراية التامة في تصريف الأمور، وبالتالي فإنّ المحصلة النهائية تكون مزادنة بالمزيد من النجاحات العلمية ...

وهذا هو المطلوب ...

أما في العراق الجديد – وبعد سقوط الصنم الكبير – (في ٢٠٠٣/٤/٩)

فإنّ الكثير من المواقع الخطيرة، والمهام الكبرى أسندت إلى مَنْ لا عهد له بالعمل الوظيفي على الإطلاق ..!!

وهذا من أكبر أسباب الفشل والإخفاق الذي اعترى هذه المرحلة للأسف الشديد ..!!

أليس من الغريب أن النظام الملكي البائد الذي مضى على انقراضه ستون عاما تقريباً يتقدم ويتفوق على مرحلتنا الراهنة التي يعيشها (الجيل الالكتروني) .؟!

-٣-

ويقول الأزري :

إنّ الملك فيصل الأول حين علم بعودته الى العراق بعد حصوله على شهادة (BSC) في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة بغداد، هو الذي أبدى رغبته أن يُعيّن (الأزري) في وزارة الخارجية.

المصدر السابق ص ١٠-١١

فأين هي العناية اليوم بأصحاب الكفاءات والمواهب من حملة الشهادات المهمّة من أرقى الجامعات العالمية ؟

إنهم اليوم توضع بوجههم العقبات والعوائق التي تحول بينهم وبين خدمة وطنهم ...

وهذا شيء مؤسف للغاية، في الوقت الذي يتبوأ فيه الكثيرون من مزوّري الشهادات مناصب مهمة..!!

-٤-

ويتحدث الأزري عن اللغات التي يحسنها فيقول :

(إني كنت أعرف الإنكليزية والفرنسية جيداً، والألمانية إلى درجة أقلّ)

المصدر السابق ص١٢

وهذه أهمّ اللغات الأجنبية

ثم تعلم خلال وجوده في إيران اللغة الفارسية، وصار يقرأ الصحف الإيرانية ويتمتع بكتب الأدب الفارسي.

المصدر السابق /ص١٤

وأنا أشهد له بأنّه كان على إلمام كاف باللغة العربية يجنّبه الوقوع في الأخطاء ...

أقول :

إننا لا نجد في كثير ممن أثرى على حساب المستضعفين والبائسين – من هو على بصيرة بلغته الأم وهي اللغة العربية، فضلاً عن غيرها .

ومن هنا يعرف عظم المصيبة والكارثة.